المقاومة الشعبية في الجنوب الوهراني (1864 - 1881)

إبراهيم مياسي
معهد التاريخ (جامعة الجزائر)

ان تاريخ الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي ، قد مر بمراحل مختلفة ، حيث يمكننا أن نقسمه الى حقب تاريخية محددة ومتميزة بسمات خاصة ، وهي كالتالي :

- الفترةالأولى (ما بين 1830م - 1848م) قد تميزت بالمقاومة المسلحة والمقاومة السياسية للوجودالفرنسي ، وقد تولى المقاومة المسلحة لهذه الفترة زعماء معروفون ورجال غير معروفين ، المعروفون هم على الخصوص الأمير عبد القادر وأحمد باي ، ومصطفى بومزراق ، وغير المعروفين منهم القائد ابن زعمون[1] بمتيجة والحاج سيدي السعدي[2] في العاصمة وضواحيها والآغا محي الدين بن مبارك شيخ القليعة وغيرهم .

وهناك أيضا مقاومة سياسية تمثلت في بعض الشخصيات كحمدان بن عثمان خوجة ،[3] وأحمد بوضربة ،[4] والشيخ ابن العنابي[5] ، وغيرهم وهناك أشخاص من قاوموا وهم مجهولون ، وقد كانوا ينبهون الناس ويؤلفون اللجان ، ويكتبون في الصحف ، ويراسلون بعضهم البعض من أجل تنظيم المقاومة وتخطيطها ، لأن الاحتلال الفرنسي في الجزائر قد محا جميع معالم الدولة الجزائرية وحكم البلاد حكما مباشرا حيث لا يوجد من يتكلم باسم الأهالي لا في شكل حكومة أو في شكل حزب أو هيئات محلية ، ولا توجد واسطة بين السلطات الفرنسية وسكان الجزائر .

ذلك أن هذه المقاومة لم تكن تتمثل في أشخاص فقط ، بل كانت تتمثل في شعب رافض للاحتلال ، فهي ارادة جماعية تلقائية لا تحتاج الى زعامة أو قيادة .

- الفترة الثانية : (ما بين 1848 - 1871) وقد تميزت هذه الفترة بالمقاومة المسلحة التي خرجت من المدن الى الأرياف والجبال والصحاري ، وتمثلت في المرابطين ورجال الدين (العلماء) الذين تزعموا هذه المقاومة ، وهذا بعد أن ثبت الفرنسيون أقدامهم على السواحل ، والمدن .

وعند ما قامت الجمهورية الفرنسية الثانية ، أصدرت قرارا في شهر مـارس 1848 نص على أن الجزائر جزء من التراب الفرنسي[6] ، فاتجه الاستعمار الفرنسي نحو المناطق الداخلية والنائية لاتمـام عملية الاحتلال الكامل للجزائر ، لكنه اصطدم في طريقـه بـالمقـاومـة الشعبيـة مثل ثورة سكان واحة الزعاطشة بقيادة الشيخ بوزيان عام 1848م[8] ، ومقاومة جبـال جرجرة خلال الخمسينـات تحت زعامة محمد الشريف بوبغلة وفـاطمـة نسومر[9] ، وفي الصحـاري تعرض الفرنسيون لمقـاومـة شعبية عنيفة من قبل أهالي الصحراء .

أما الستينات من القرن الماضي فقد تميزت بانتفاضات عنيفـة ومريرة لأولاد سيـدي الشيخ ، وختمت هذه المرحلة بثورة 1871 لعائلتي المقراني والحـداد ، بمنطقـة القبـائل الصغرى[10] ، وثورة الشريف بوشوشة (1869 – 1874) في الصحراء[11] .

– أما الفترة الثالثة فهي تمتد الى أواخر القرن التاسع عشر حيث عرفت البلاد عـدة انتفـاضـات وثـورات منهـا على الخصـوص ثـورة واحـة العمري بنـواحي بسكرة (1876)[12] ، وثـورة الأوراس (1878)[13] ، ولكن القوات الفرنسيـة أخمـدتهـا واستطـاعت أن تقضي على جميعهـا ، لعـدم اتحـادهـا وتماسكها ، وتحديد أهدافها ومناهجها . وبذلك اعتقدت السلطا ت الفرنسيـة أن عهـد الثورات قـد ولى في الجزائر[14] ، وما عليها الا أن تتمم عملياتها التوسعية في الجنوب الجزائري ، ولكنها اصطـدمت بمقاومة عنيفة تمثلت في ثورة بوعمامة التي استمرت سنوات طويلة مدافعـة عن التراب الوطني ، وهي في الحقيقة استمرار وامتداد لانتفاضات أولاد سيدي الشيخ منذ سنة 1864 .

ذلك أن هذه الأسرة قد لعبت دورا هـامـا وتـاريخيـا في حيـاة الجنوب الوهراني ، وينحـدر أصلها ، كما هو شائع ، من أسرة الخليفة أبي بكر الصديق[15] ، (رضي الله عنه) والتي سكنت بمكـة المكرمـة في بـدايـة الإسلام ، ثم هـاجرت ومكثت بمصر لبعض سنـوات ، ثم انتقلت الى تـونس . ونظرا لمـا تتمتع بـه هـذه الأسرة من احترام ونفوذ ديني معتبرين فـان بعض أفرادهـا قـد احتلـوا مناصب هامة في الدولة وذلك خلال القرن 14 م[16] .

ثم لم تلبث هذه الأسرة أن رحلت من تونس متجهة نحو الغرب في مطلع القرن الخامس عشر الميلادي ، وكان سيـدي معمر بن الأعلى رئيس هـذه القبيلـة وأتبـاعهـا قـد استقروا في منخفض وادي القليتة ، حيث شيـدوا قصورهم هنـاك ، والتي تسمى بقصور العربـاوات ، ثم غـادر البعض من أفرادها هذه القصور ، واتجهوا بقيادة سيدي سليمان ولـد أبي سماحـة الى واحـات فيقيق ، غير أن ابنه البكر سيدي محمد قد اشتاق الى وطن أجـداده ، فغـادر فقيق ونزل بـالشلالـة الا أن توفي هناك ، وبعد وفاته استقر أخوه سيدي محمد المجدوب بعسلـة غرب قصر الشلالـة الظهرانيـة ولقـد أنجب ولـدا رزق (البركـة) والتقـوى والاحترام والتقـديس في بعض الأحيـان واعتبر ولي اللـه الصـالح ، وهو سيـدي عبـد القـادر الـذي شـاع اسمـه في كامل الجنوب الغربي والجزء الشرقي من المغرب الأقصى ، وأصبح له العديد من الأتباع والاخوان .

وقد ولد هذا الولي الصالح عام 1530 وتوفي عام 1615 ودفن في الأبيض الذي أصبح يطلق عليه منذ ذلك الحين اسم الأبيض سيدي الشيخ[17] .

خلّف سيدي عبد القادر عددا كبيرا من الأولاد الذين تنازعوا فيما بينهم على الزعامة الدينية والقيادة السياسية بعد وفاة والدهم . فانقسموا الى قسمين هما :

- قسم استقر في قصر الأبيض سيدي الشيخ ، حول قبر أبيهم بزعامة الابن الأكبر الحاج ابي حفص .

- قسم آخر استقر في الناحية الغربية من القصر ، بزعامة الابن الثالث سيدي الحاج عبد الكريم وعددهم أكبر من القسم الأول .

وقد عاش القسم الأول حياة البداوة في الخيام مع العبيد والاتباع والخدم ، ثم استقروا في شرق قصر الأبيض سيدي الشيخ ، وأسسوا لأنفسهم زاوية خاصة ، وسموا بأولاد سيدي الشيخ الشراقة ، كما أنشأ الفرع الآخر زاوية خاصة بهم أيضا ، وسموا بأولاد سيدي الشيخ الغرابة .

هذا وقد ورث سيدي حمزة ولد أبي بكر السيطرة الروحية والدينية لأولاد سيدي الشيخ لأنه سليل الحاج أبو حفص الابن الأكبر للولي ، حيث أن هذا الفرع من هذه الأسرة يتمتع باحترام وتقدير سلاطين المغرب الأقصى الذين ارتبطوا بهم منذ القدم بالمصاهرة ، ذلك أن في سنة 1844 وقع اختيار السلطان المغربي مولاي عبد الرحمن على السيدة الياقوت شقيقة سي حمزة ليتزوجها[18] .

وبمقتضى معاهدة لالاه مغنية 1845 لتحديد الحدود ، انحاز فرع الغرابة في التراب المغربي ، أما فرع الشراقة من أولاد سيدي الشيخ فانضووا على مضض تحت السلطة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر ، التي حاولت أن تجعل منهم وسيلة لتوسعها في الجنوب الغربي حيث عينت سيدي حمزة ولد أبي بكر - بعد مشاورات ومساومات - خليفة على الجنوب الجزائري من البيض غربا الى واحات ورقلة شرقا .

وشغل هذا المنصب مدة ثمانية سنوات ، ثم ارتابت السلطات الفرنسية في اخلاصه ، فاستدعته الى الجزائر العاصمة ، ثم توفي هناك فجأة يوم 11 أوت 1861[19] ولا يستبعد أنه قتل مسموما .

ذلك أن خبر توقيفه عن عمله من السلطات الفرنسية ، قد أثار شكوك وانفعال وعدم ارتياح في كامل أرجاء الصحراء ، وحتى التل الوهراني ، أما موته فقد أشعل نار غضب السكان ، وقد نعاه الشاعر الصحراوي الشيخ يوسف الشعانبي بقصيدة طويلة ، منها ما يلي :

سلطان الصحراء درق حسه ما بان ... خل النجع ومرغادي

ذيك الليلة شيبت كل العربان ... راحت ميخ ... ودة دادي

غاب شليل القوم دباب الدهشان ... حرم ... ع نقسار صدي

غدروا فيه الروم شينين الديوان ... غ ... ل رادي[20]

وقد خلف سي حمزة وراءه آخوين هما : سي الأعلى وسي الزبير ، وستة أبناءهم : بوبكر ، وسليمان ، ومحمد ، وأحمد ، وقدور ، والدين .

هذا وقد عينت السلطات الفرنسية الابن الأكبر بوبكر في مكان أبيه ، ولكن برتبة «باش آغا» التي هي أقل من رتبة خليفة ، ولم يلبث أن توفي هو الآخر سنة 1862 ، فعين الفرنسيون في مكانة أخاه سي سليمان بن حمزة بنفس اللقب والرتبة ، وعينوا معه عمه سي الأعلى قائدا على آغوية ورقلة في مكان سي الزبير الذي كان يشكو من مرض عضال مزمن ، وكان سي الأعلى صاحب طموح وحيوية ونشاط ، فأخذ يسعى ويحاول أن يدفع ابن أخيه سي سليمان الى الثورة والتمرد ضد الفرنسيين ، مستغلا في ذلك عدة ظروف مثل رحيل القوات الفرنسية الى الحروب والغزو الاستعماري في المكسيك والكونشينشين بالهند الصينية . ولم يتوقف عن محاولاته حتى نجح في رميه في خضم الثورة في أوائل عام 1864[21] .

أما أسباب هذه الثورة فهي متنوعة وعديدة ذلك أن الأوضاع في الجنوب الغربي كانت متدهورة وخطيرة ، لا تنتظر الا فتيل الاشتعال . وقد حدث ذلك يوم 29 جانفي 1864 ، حينما اجتمع عددا من أفراد عائلة أولاد سيدي الشيخ في ساحة البيض وكان معهم سي الفضيل كاتب الباش آغا سي سليمان ، وأخذوا يلعبون لعبة (الهف) أو (الخربقة) وهي لعبة ذات شهرة واسعة ومنتشرة بكثرة في الجنوب ، وهي تشبه لعبة الشطرنج ، وتتطلب الكثير من التروي والتفكير والبراعة وقد انضم اليهم عدد من الصباحية التابعين للمكتب العربي بالبيض ، وخلال اللعب تدخل أحد الصباحية اثر تحريك بيدق (كلب) بطريقة غير صحيحة وأدى ذلك الى حصول مشاجرة بينه وبين سي الفضيل ، انتهت بتدخل كل الصباحية فاقتادوه الى مقر المكتب العربي بأمر من الملازم «بوران» (BORIN) وعوقب بالضرب بالعصاء[22] .

ولماعلم سي سليمان الباش آغا بالحادث أسرع الى المكتب العربي ، وأطلق صراح كاتبه ، بعد أن توعد الضابط الفرنسي ثم رجع الى منزله وأعتبر سي سليمان هذا الحادث اهانة له ولعائلته ، لذلك أخذ يستعد لاشعال الثورة في وجه الاستعمار الفرنسي فاجتمع مع مجلس «الجماعة» وتشاوروا في الأمر ثم قرروا الجهاد من أجل طرد المستعمر الغاشم على أرض الأجداد الطيبة ، وكلفوا سي الفضيل بابلاغ كل القبائل والعروش والمقاديم والاخوان والتابعين للزاوية بهذا القرار الحاسم .

وفيما يلي نص الرسالة التي عثر عليها في المخطوطات التي تركها سي القضيل[23] .

«الحمد لله ذي الاسم الأعظم[24] والصلاة والسلام على نبي الهدى من عبد ربه سليمان بن الشهيد حمزة أبي بكر رحمها الله الى كل من مقاديم الطريقة الرشيدة وشيوخ القبائل وكبار العماير السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد هذا مني اليكم باتفاق جماعتنا بشرى باعلان الجهاد في سبيل الله على سنة رسول الله ﷺ ضد الكفار الفاسقين الفرنساويين لعنهم الله الذين صالوا علينا وتعدوا وأطغوا (كذا) وشرعوا في اهانة ديننا الحنيف لا أراد الله بعدما فسقوا في

المكتبة الجهوية بتمنراست Bibliothèque

أرضنا وأحلوا ما حرم الله فها نحن رفعنا راية المحمدية وبشرنا كل مسلم بالجهاد راجين من المولى سبحانه وتعالى أن ينصرنا على الكفار المخزيين وراجين منكم ومن ناسكم جميعا أن ﴿**أعدو لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وماتنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون**﴾ فأياكم ثم اياكم وكونوا من القوم الذين وعدهم الله ﴿**ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون**﴾ . ولن يخلف الله وعده عن الجهاد ، وبيوم المصانع وميدانه والجمع اللازم قبله يخبركم حامل البلاغ هذا وليبلغ من لا يبلغه من بلغه والسلام .

كتب بأمر خديم الدين سليمان بن حمزة
يوم 22 من شهر شعبان 1280»

وهكذا توضح الرسالة مدى سوء تصرف الحكام الفرنسيين الغاصبين تجاه الشعب الجزائري ومقدساته ، وتبين طغيان الاحتلال وتجبره ، وهذا مما يدفع بالشعب الجزائري الى الثورة كلما حانت الفرصة للدفاع عن كيانه ووطنه ودينه .

ولم يمض شهر فيفري 1864 حتى تمت الاستعدادات للثورة ، ثم اشتعلت نيرانها يوم 8 أفريل حينما باغتت قوات أولاد سيدي الشيخ مخيم الجيش الفرنسي في هضة عين بوبكر شرق البيض فأثار هذا الهجوم المفاجيء الهلع والاضطراب والفوضى في صفوف القوات الفرنسية وأسرع سي سليمان قائد الثورة الى خيمة العقيد وقتله ، ولكن حراسه قتلوا سي سليمان في نفس اللحظة[25] ورغم ذلك فقد استمرت المعركة وانتصرت قوات الثورة ، وقد أثار هذا الانتصار اعجاب الجميع فنهضت الجزائر من أقصاها الى أقصاها ، وبدأت القبائل تنضوي تحت لواء هذه الثورة وخاصة من الجنوب الوهراني وحتى التل ، واستمرت هذه الثورة سنوات عديدة تحت زعامة أولاد سيدي حمزة .

وقد شارك فرع أولاد سيدي الشيخ الغرابة في أحداث هذه الثورة تارة مع الثوار ومآزرة الثورة و طورا مع الفرنسيين للحصول على مناصب وتصفية حسابات شخصية ، ومن أهم الشخصيات التي لعبت دورا هاما في هذه الأحداث هي :

- سيدي الشيخ بن الطيب ، زعيم الغرابة وتوفي عام 1870 .

- سيدي سليمان بن قدور ، وهو آخ لسيدي الشيخ بن الطيب ودخل في منافسة شديدة مع أبناء عمومته الشراقة .

- الحاج العربي بن سيدي الشيخ بن الطيب قتل عام 1871 مع أخيه سي سليمان اثر صدام ضد سي قدور بن حمزة زعيم الشراقة ..

– سي معمر بن سيدي الشيخ بن الطيب قتل عام 1874[26] ، اثر معركة ضد القوات الفرنسية وأعوانهم في نفيش جنوب جبال المالحة على حدود الشط الشرقي .

هذا وبقيت نيران الثورة مشتعلة ، ولم تخمدها القوات الفرنسية حتى بعد تعيين سي سليمان بن قدور زعيم أولاد سيدي الشيخ الغرابة آغا على البيض وحميان سنة 1868 . ثم تدعيم قواتها . وارسال عدة بعثات الى الجنوب لانهاء هذه الثورة ومنها بعثة «وانمبفين» (Wimpfen) و «شانزي» (CHANZY) الى واد قير سنة 1870[27] ثم أقالوا سي سليمان من منصبه في نهاية سنة 1871 ، واعتقل بناحية عين تاموشنت ، ثم لاذ بالفرار مع عائلته الى المغرب الأقصى يوم 12 أفريل 1873[28] وبعد ذلك التحق بأبناء عمومته ليقاوم الاحتلال الفرنسي للجزائر .

واسترت ثورة أولاد سيدي الشيخ خلال السبعينات تتصاعد مرة وتخفت مرة أخرى وذلك حسب الظروف والاستعدادات ، وقد واكبت هذه الثورة ثورات أخرى كثورة الشريف بوشوشة وثورة واحة العمري ثم ثورة الأوراس .

كما أنها تواصلت مع ثورة بوعمامة التي حيرت الأعداء وأثارت اعجاب الجميع واستغرقت أكثر من ربع قرن ، وهي تحتاج الى دراسة خاصة في فرصة أخرى ان شاء الله والله ولي التوفيق .

الهوامش

(☆) جزء من محاضرة ألقيت في الملتقى الثاني للمقاومة الشعبية وحروب التحرير – قصر الثقافة – جوان 1986

(1) ينتمي ابن زعمون الى قبيلة فليسة ، نظم مقاومة لصد زحف الاحتلال الفرنسي على البليدة ، فقد هاجم في 26 نوفمبر 1830 مدينة البليدة التي ترك فيها الفرنسيون حامية بقيادة العقيد رولير . ودارت في شوارع المدينة معركةضروس توفي على اثرها عدد كبير من الفرنسيين والسكان ، ثم استمر بعد ذلك يقاوم طيلة سنتي 1830 1831 حتى انعزل وانقطعت أخباره .

أنظر : سعد الله (أبو القاسم) ، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث ، الجزائر ، 1982 ، ص 87 – 88 .

(2) ينحدر سيدي السعدي من أسرة مرابطة من مدينة الجزائر ، وكان طموحا متدينا شجاعا ، وقد ساهم في اثارة القبائل ضد فرنسا ، وكان صوته مسموعا لمكانته الدينية ، وشارك مع ابن زعمون في ثورة قبائل متيجة ضد الاحتلال الفرنسي ، ثم التحق بالأمير عبد القادر ليواصل جهاده ضد الفرنسيين .

أنظر : سعد الله المرجع السابق ، ص 89 – 90

(3) الحاج محي الدين بن الصغير بن سيدي مبارك ، مرابط مدينة القليعة ، عينه القائد الفرنسي العام «برتزين» آغا على العرب في منطقة سهل متيجة سنة 1831 ، ثم عزله الدوق دي روفيقو بحجة مشاركته في الثورة ، وأراد الانتقام منه ، فانضم الى الأمير عبد القادر الذي عينه خليفة له على مدينة مليانة .

أنظر . سعد الله ، المرجع السابق ، ص 91 – 95

(4) حمدان بن عثمان خوجة ، من أسرة جزائرية عريقة وثرية ، ولد حوالي 1773م ، دافع عن حقوق الشعب الجزائري ، وعاش طوال حياته مناضلا وكاشفا لأساليب الغزو والاستعمار الفرنسي . وكان أيضا من دعاة الاصلاح والقومية ، توفي بالقسطنطينية ما بين 1840 و 1845

أنظر حمدان بن عثمان خوجة ، المرآة تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري ، الجزائر ، 1975 .

(5) أحمد بوضربة ، من أعيان الجزائر ، وزعماء المقاومة السياسية ، قدم مذكرة الى اللجنة الافريقية سنة 1833 ، ليشرح فيها قضية بلاده

أنظر : محمد العربي الزبيري ، مذكرات أحمد باي ، وحمدان خوجة وبوضربة ، الطبعة الثانية الجزائر ، 1981 ، ص 169

(6) محمد بن محمود ابن العنابي ، ولد بالجزائر العاصمة سنة 1775م ، قام بعدة وظائف منها وظيفة الافتاء ، ثم نفاه القائد الفرنسي «كلوزيل» الى الأسكندرية ، حيث تولى فيها منصب الافتاء الى أن توفي حوالي سنة 1850م .

أنظر : سعد الله (أبو القاسم) المفتي الجزائري ، ابن العنابي ، رائد التجديد الاسلامي ، الجزائر 1977

(7) CH. Julien. histoire de L'algerie contemporaine, 1827-1871, 2em édition, Tome I Paris, 1979, pp. 342-351 .

(8) عن ثورة الزعاطشة أنظر . محمد العربي الزبيري ، مقاومة الجنوب للاحتلال الفرنسي الجزائر ، 1971

(9) عن ثورة بوبغلة وفاطمةنسومر أنظر . يحي بو عزيز ، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين ، الطبعة الأولى دار البعث ، قسنطينة ، (الجزائر ، 1980 ، ص 75 ، و ص ، 99

(10) عن ثورة 1871 ، أنظر يحي بوعزيز ، ثورة 1871 ، (دور عائلتي المقراني والحداد) ، الجزائر ، 1978

(11) عن ثورة الشريف بوشوشة ، أنظر : يحي بوعزيز . (أضواء على كفاح الشريف بوشوشو) مجلة الثقافة الجزائر ، العدد 34 أغسطس / سبتمبر 1976 ، ص 85 – 99

(12) عن هذه الثورة ، أنظر : يحي بوعزيز ، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين

(13) عن ثورة الأوراس ، أنظر . عبد الحميد زوزو ، ثورة الأوراس ، سنة 1979 ، الجزائر ، 1986

(14) CH. R. AGERON, les Algeriens Musulmans et la france. Tome I PARIS, 1968, p.63 .
TRUMELET (Col[e]-), les français dans le désert, 2[eme] édetion, PARIS 1885, p.80 .
(16) Ibid. p 81 .
(17) Ibid. p.p 82-83 .
(18) Ibid. pp. 84-85 .
(19) Si Hamza Boubakeur. «origines de la gerre du sud-Oranais centre la FRANCE 1864-1900» revue historique Maghribine n 6. TUNIS. 1976-136.

(20) Loc - cit.

(21) يحي بوعزيز . ثورات الجزائر ، ص 140

(22) Si HAMZA BOUBAKEUR, op. cit. pp. 137-137.
(23) SI HAMZA, op-cit, p. 138.

(24) Loc-cit .

☆ الموافق لـ 1 فيفري 1864

(25) SI HAMZA, op-cit, p 144.
(26) L. VOINOT, «la situations sur la Frontiére Algéro-Marocaine du Tell lors de l'insurrection des Oulads Sidi Chekh dans le sud-Oranaiss», (1864-1870) Exrait de la R.A., n 300, ALGER, 1919, pp 5-6.
(27) R. AGERON, les Algériens Musulmans et la France, Tome I PARIS, 1968 .
(28) Tbid, po. 63-64 .